

الرمز في رواية « السام » بقلم عبدالله ونوس

منذ الصفحات الاولى ، يقدم نفسه الينا من خلال عنف صامت، ينطوي على عذاب اصيل ورتيب . عنف ، لا نقاش ، ينبع من يقظة وعيه الطويلة، وارتطامه الموصول بالحقيقة - واقع الماساة المربع - .. هذا الارتطام الذي يثبت السام . سام مغاير « ليس عكس التسلية ، بل انه يشبه التسلية بما يخلفه من شرود ونسيان . ان السام في نظري حقا نوع من النقص او عدم التلاؤم ، او غياب حس الواقع » .. الفطاء القصير، والاحساس الواعي باللامعقولة ، حتى ان الكاس تقيب نهائيا خلف انعدام - مرعد - ، فلا يستطيع معاودة الاحساس بها الا بنهشيمها .

وهذه الوضعية مماثلة لحالة « رسول » كما هو ذي الشعور الثقيل .. المشوه بالواقع ، حتى ليلوح ان هذا الواقع ايضا غائب خلف الاصطدام الخائق باللامعقولة . ولكن ، بينما يعانى « رسول » ذلك على مستوى الحس فقط عاجزا عن وعيه ، فان دينو يمي مشكلته ، ولا يمل تحليلها ، واضاعة شتى جوانبها ومنعطفاتها . مما يعطي التجربة جدتها او تميزها . فالقضية مطروحة هنا على مستوى عقلي يزخرر بالتحليل والرؤية الواعية ، ولا يكتفي بالمعانة الانفعالية ، المهمة في اغلب الاحيان . وبطل « السام » يعرف بتامله الاستبطاني المرفه والمستمر مازقه الصعب ، ولا يعجز عن تسميته بكلمات قليلة وبسيطة ، حينما يدعى لذلك . انه انضمام العلاقة بينه ، وبين هذا العالم السينمائي الزائف الذي يصفه كما هو بأنه لا معقول وحسب . الاشياء كلها هناك . وهو - هنا - وليس بينه وبينها شيء قط . فراغ فسيح من اللايقين كالفضاء النجمي ذاته .

والجدير بالقول ، ان انقطاع الارتباط مع العالم ، او غياب الشعور برسوخ العلاقة به ، ليس بالامر الهين او المحتمل . انه كحرمان الانسان ارضا يستند اليها بقدميه اللابئين ، او كتعريته من الثقة والقائه في دوامة تازم نهائي يكتنر بالشك والقلق بأسوأ معطياتهما النفسية . والانسان حين يضع وتده الذي يسمره الى العالم ، او يوهمه بذلك، ينزلق - دون مشيئته - الى لجة ميعان ممدود . متهافت ورمادي، تنعدم فيه الصلابة ، ويضيع منه اليقين ، فيتخط في جوف الميسوعة غارقا ببطء ، وبوحدة مربعة مسمومة . ذلك ان الاخرين على الرصيف الثاني . هناك .. لا يسمعون .. لا يبصرون ، تقسل طمانينة مصنوعة .. كاذبة وسواس صدورهم ، وتمنحهم نعمة النعاس اليبيد . فالعالم موجود بكفاية ، او العالم خارج دائرة السؤال ، لانه ليس هناك سؤال، والمشكلة ملفية بالوراثه . لقد عرفوا - منذ القديم - كيف يعقدون روابطهم - العيشية دائما - مع هذا العالم . روابط مزيفة حقا، ولكنها التخدر الهروبي الضروري الذي يعطيهم يقين الوجود ويحصنهم ضد الانعناق من كل الاوهام ، فلا يخبرون بذلك جحيم الرصيف الاخر، حيث لا ارض ثابتة . ومع هذا فعلى دينو أن يقف ، وطبعا دون معونة التصور اليومي الاثله .

ان لعبة « العيش البشري » المكرورة ، التي تدور ككل يوم ، عبر العصور . والتي تسد بتجاهل تافه كل الفجوات الفارقة بين الانسان والعالم لا تنفعه ابدا . لانه ، مدفوعا باشمئزاز وعي نائر ، لا ينساق اليها بالرة . وتآزمه - في جوهره - عبارة عن رفض نائر ، ومنذ حدائة بعيدة ، لهذه اللعبة . فهو لا يقبل عالم امه وشكلياتها التي تهبها الوثوق ، وتحميها من « الانفقاد » النفسي ، او لا يستطيع ان يسدرج في حركة « الواقع التافه » الرتيبة والرخية لافيا انبعاث المشكلة من

تنطوي بعض الاعمال الادبية على كثافة شديدة تهز خمول الزمن، وتجهد الرؤية التي تتلمس مسلكا يقودها الى صميم العمل ، حيث قاعه وبقته في الوقت ذاته .

ورواية البرتو مورافيا « السام » ، هي بلا جدال ، مثل واضح على ذلك انها مثقلة بكثافة صميمية توظف ، وترعى كاي تماس مباشر مع العري . كثافة خاصة تنبعث - ولا مفر من تحديد ذلك اذا شئنا فض اسرارها ومضامينها - من عمق القضية المطروحة في الرواية اولا ، ومن عمق مستوى المعالجة ثانيا . فللرواية ملمحان : خارجي شكلي يكتظ بالروائع البشرية ، وانفاس الواقع ، وباطني يتوي في الاعماق الابدع تتعري الشخصيات فيه من شكلياتها ، وتكتسب تجريدا حيا يعيد للقضية، بطرح رمزي بالغ العمق والنفاذ ، كليتها واصالتها الذهنية . ولا غرابة في هذا ، فرواية « السام » في جوهرها تجربة فلسفية مثيرة ترمي الى دراسة قضية ميتافيزيكية بحثة على منعكس انساني ، بصورة يتواجد فيها المنصران الاصيلان للدراما الازلية : الذات الانسانية والعالم . ويظل للقضية ايضا بعض تجريدها وذهنيتها . والتجربة مبنية باحكام شديد يتأتى من الترابط التلقائي والموجي بين وجهي العمل : الخارج والداخل . فيفضي اولهما الى الاخر، ويكمل بواقعيته الثقيلة تجريد الرمز الجائم وراء السطح .

ان خارجية « السام » ، وهي ذات سمات واقعية صلبة ، تصنع خلفية ممتازة تعطي الرموز شروط تفاعلها الملائمة ، وتكسب الحياة الباطنية للرواية تجسيدا بشريا يقني التعبير الماساوي في الدراما، ويزيده حقيقة ودلالة . والاحداث التي تتالى ثقيلة .. هزيلة لا تساوي شيئا بذاتها ، بل بقدرتها الابداعية في المستوى الرمزي الذي ينطوي على الضموم الفلسفي للرواية .

ومن هذا المنظور بالذات ، ينبغي ان نتأمل هذا العمل - المزع - عندما نحاول التغلغل الى صميمه ، والقض على دخليته .

ان دينو - وهو بطل الرواية - ليس مجرد انسان في وضع شخصي خاص ، كما يقدمه لنا الشكل الخارجي ، بل هو - على العكس - ترديد معاصر لابطال الماسي اليونانية القديمة الذين كانوا يرمزون الى الانسان في عمومياته وتجرده ، ويلعبون ادوارهم الفاجرة في اطار معبر يومي الى شمولها ، وجذريتها في الوجود الانساني .

وهذا - لا شك - ما يمنحه اهمية مبالنسية لنا ، فهو ببمفرض التخطي تجربتنا او نموذجنا الذي يطرح - من جديد - ، ويتضحية هائلة ، المشكلة بكل نقلها وقيمها وبأسها . (كمرسول) (1) كما هو كشف للحقيقية المرة من غير زيف او تضليل ، وبصورة تهب الرواية طابعا اسطوريا ذا ذاتية خاصة توأمه مع طبيعة العصر ، ومع التغيير الطارئ على المناخ الذي يوظف قضايانا الاساسية الثابتة .

انه ، وبحركة تجريد طبيعية وغير متعسفة ، الانسان .. بطسل الماساة الصميمية الذي يستيقظ على عالم فارغ من التبريرات . تترايط الاشياء فيه بالية مزيفة وهزلية . تجميد « مادوزي » يثير الضحك والاشمئزاز معا على حد تعبير (سارتر) . او بكلمة اخرى ، عالم ناقص يعجز كليا عن اقصائه بوجوده الفعلي . ونقص الواقع منوفر دائننا، لكنه لا ينكشف الا تحت وهج الوعي يتسلط عليه ، ويفضحه . ودبنسو،

(1) مرسول هو بطل رواية « الغريب » لالبر كامو .

هذا العالم بالانتماء الى النقاد .. ربيتها وكهينها . ومن جهة ثانية حين ميهم لوضعية الاحتياج التي تولد اهدافا مادية تعوض، او تلهي عن المشكلة الاساسية ، وهو حين لن يشبع بالتاكيد . بسبب اصرار وعيه على الا يخون نفسه ونو حاول ، ولانه غني - جدا - ولو كره .

تمرابطة انتمائية اخرى ذات اهمية خاصة في الحياة البشرية . وهي العاطفة . اذ ان الام - مثلا - تكتسب بطلقها الشديد بابنها نفلا واستقرارا . والعاشق يفتد تواصلا مكينا مع الاشياء من خلال حبسه لغناته . ولكن ، بالنسبة لهؤلاء الملونين ببصيرتهم ، ليست المسوافف الا استجابة ساذجة للخديعة . ولذا فانهم يتجنبونها ، او يعجزون عن تحصيلها . ولو سألنا دينو : - هل تحب أحدا ، بما فيه نفسك ؟ لاجاب على الفور اجابة مرسول لماري : - لا .

واذن ، فهو محروم ايضا من تخطيط الصلصة التي ينلمسها ، بافاعات عاطفية جامحة تستنزف امكانية «الليقظة» كلها . وعليه ان يتقرب دربا اخر .

في شارع مارغونا ، بعيدا عن عالم امه اللاحققي ، وفي جو خائق من الرفض . يحاول ان يعقد رابطنه مع العالم بواسطة التعبير الفني . وعقد هذه الرابطة هو حالة عقلية ذات معنى نفسي . ولكن ، ما دامت سينمائية هذا العالم تجرده من ثقله ، ومن واقعية وجوده ، فسان الادراك يظل فارغا الا من وضعية الغياب فلا ينتج شيئا . والرسام محتاج - بالضرورة - الى موضوع ، او الى رباط عقلي مع هذا الضباب الصامت ، والساحر الذي يدعى عالما . فاذا انعدم الموضوع ، وخلا الادراك ، صار طبيعيا ان يقفز دينو ، ويمزق بفريبات سكينه الحادة اللوحة المتكئة على مسندها ، مصرحا بفشل التعبير الفني في اعطائه الاحساس بوجود الاشياء الذاتي . وعندما يضع لوحة بيضاء مكان المزقة ، ويوقعها باسمه ، ثم يتركها ، وحتى نهاية القصة ، مستنعدة على حاملها ، صامتة ، فارغة ينتج بذلك ، وعلى صعيد ايمائي ، الصورة الوحيدة التي تحكي حالته : المانة الدائمة لمبئية الواقع الناقص، وغياب هذا الواقع بسبب لا حقيقته وانسلاخه من الوهم ، بعيدا عن ارادة الادراك .

ولا بد - هنا - من توضيح ان المانة من الاحساس باللاحققيية، انما تنبع - بالدرجة الاولى - من تضمن هذا الاحساس وعيا نظريسا بان هنالك حقيقة . الامر الذي يهيج «شبقا فريسيا» للقبض على هذه الحقيقة واصطباها . وجميع «الغرباء» يعرفون هذا الشبق، ويتصرفون وفقا لدفعه الذي يشكل حافزهم السلوكي الوحيد . فاذا علمنا بعد ذلك ان هذا الشبق - رغم سطحه الساكن - عنيف بركاني يتوتر بين السلب والايجاب في اطلاقهما ، وبصورة مفقدة لا تتوضح الا على ضوء اليأس الازلي الذي يترصد اشبائه دوما ، عرفنا الخطر الصامت الذي تنطوي عليه حياة المريض بالسام ، والذي يتحفز ابدا للانفجار .

وعادة ، يحاول كل سئم ان يجد وهما شخصيا عن الحقيقة يستغرق شبقه النابح في اعصابه ، ويحدد لنشاطه هدفا ما . وهذا الوهم، عندما نرد له اصالته ، هو الرمز الذاتي لهذا العالم الاخرس .. اللامبالي ، والمنضم في غياهب صمت لا انساني على الحقيقة المشوذة . ولهكذا تنسم العلاقة به بكثافة من الغرابة والكثافة والشدة . وتتجاوز النتائج الشكل المعروف لتلاقي الطاقة مع الهدف ، فتسقط في غلو وتطرف مؤسسين .

واختيار هذا الوهم لا يقوم غالبا على انتخاب عقلي دقيق او بعد تمحيص وتدقيق ونظر . بل - على العكس - كثيرا ما ينبني على رد فعل عابر تبرره الحالة النفسية السيئة .. المضناة . انفجار مباطت في سيولة الحياة .. حرمان مادي محسوس ، ويهيج الشبق الفريسي اصلا انه وجد المسارب التي يلج فيها ، وتنفرد طاقاته وحرارته في افئيتها . ويولد ظن ، ثم شعور - لا عقلاني بالطبع - بشقل حقيقة ما داخل هذا الشيء . يتحقق بهذا وهم شخصي يزداد قوة ونغودا كلما ازداد امتناعا . حتى ان هذه العلاقة تترجع الى نهائية متطرفة ، هي التي تفجر العمق



جنورها . ان امه المنتمية الى حينا للمال، والى عاداتها الدقيقة، واحترامها اللاتمتاهي للشكل ، والتي تمثل بصوفية مضحكة « الاسرة - العالمة - النبيلة جدا ، العريقة جدا التي لم يحدث لها في الماضي ان سئمت قط ، لانها كانت دائما في علاقة مباشرة ومحسوسة مع الواقع » - هذه الام ، تثير اشمئزازه ، وتفضيه . حتى انه ، عندما يكون ذاهبا الى منزلها ، يحس بنفور ، وكأنه يعود الى الرحم الذي حمله جينا . ولهذا لا يحتمل البقاء معها اكثر من ساعات يفر بعدها مزدريا زيفها ، هاربا من غناها .

والفنى - هنا - يشر استطرادا لا بد منه في هذه الدراسة . اذ انه اهم العناصر التي تبني بها الخلفية التي تحدثت عنها سابقا . فهو، بالإضافة الى كونه التفسير العيشي للتأمل الفلسفي ، اداة فعالة لاجبار الواقع على بذل نفسه برخاسة . مما يحرم مالكة ، المبصر بالتحديد - من الانتماء الى اهداف مادية ، واستفراغ طاقات القلق في مطالب مباشرة ، ومحسوسة .

والواقع ، ان معظم الروابط الممتدة بين الناس والعالم هي احلام معيشية مادية يتحدد النزوع بها، ممثلة الاوتاد البعيدة التي يرتبط الوجود بكل ديناميته وقدرته الانجازية بشبانها ومثانة صلابتها .

- انتحار مارلين مونرو التي امتلكت كل رغائبنا المادية دفعة واحدة ، مغتزلة بذلك التحقق الكلي لاهدافنا التي تصلنا بالعالم في العادة ، يرقى الى مستوى الاعتراف بلا جدوائية هذه الروابط ، وعجزها الفاضح عن اقامة أية علاقة هادئة ، راسخة مع العالم .. هذا السجز الذي لا يكتشف الا بنظرة من أعلى . نظرة بائسة تتضمن على الدوام امكانية انتحار ناضجة . -

ومن غير شك ، ان بطل السام يفض من اعماقه الوضعية التي تتبع له مثل هذه النظرة . فيظنه من غناه لا يقتر لحظة ، حتى ليحاول، بصيانية تعيسة ، ان يصير فقيرا . ناسيا ان انسانا له ام غنية يمتنع عليه الفقر ، ويستحيل . ولو تعمقنا - في الحقيقة - هذه المحاولة الدائبة ، لوجدنا انها تنطوي على معنيين مزدوجين ومتناقضين . فهي، من جهة ، اداة لكل العالم الذي تمثله امه ، وفشل في محاكاة بشسر

وما كانت هذه العودة في بدايتها تعني شيئاً ، لانه لا يلبث ان يقع
فريسة سامة الذي يغيب سيسيلىيا ، كثيرها من الموجودات ، في انعدام
مهرق وخائق . وعندئذ - بحثا عن النجاة - يحاول ان يتخلص منها .
ولكن ، يا للمفاجأة ، في اليوم الذي يقرر تنفيذ ذلك ، ترفض بسفل
نفسها المعتاد ، ولا تأتي ، مشيرة بهذا الدافع المباشر لبدء الصراع
المختزن والمر . ان امتناعها عن المجيء يصبح معادلا لكونها حقيقية، وممكنة
الامتلاك . والواقع الذي يخفيه ضباب السام هو منذ الأساس واقسع
مبدول لا يعرف الرفض . واقع لا حقيقي وزائف ، على عكس سيسيلىيا
التي كانت تصير ، وهي تسيير الى هدفها في اليوم التالي ، وعينا دينو
مسمرتان على ظهرها تتبعانها ، الحقيقة « طبعاً وهمها فقط » الجديرة
بالامتلاك حتى الهوس .

هنا تنجلي كل الرموز التي تتشابه منذ الان بتركيز متعقل ومدروس:
الانسان والعالم والمرأة .

والعلاقة بين دينو وسيسيلىيا لا معنى لها لولا انها تجسد هذه
الرموز ، وتضع لها مدار حركتها ، وتماسها الياسي . ولا ريب ان الرواية
تكتسب اعماقا واسعة وجديدة على ضوء رمزيتها . فسيسيلىيا ليست
مجرد فتاة مراهقة نصفها ناضج ، والاخر طفولي ، وانما هي تمثيل بارع
التصوير لعالمنا الصامت ، المتجرد ، اللامبالي ، الحيادي ، الذي يأخذ
ولا يعطي . ووجودها غارق في سلبية قاسية فظة . فهو مفلق .. راكد
لا يتجاوب ولا ينكشف قط . تماما كهذا العالم الذي يرتطم به الوهمي-
الحنين البشري - عبثا .

ويتمتع مورافيا في الابعاء بهذا التمثيل على رسم حركات وكلمات

المساوي للاسطورة .

ولا فائدة في هذه العلاقة من تقييم السلوك بمقاييسنا اليومية
التقليدية . لان ذلك غير عادل ، وقاصر نهائيا عن فهم موضوعية هذا
السلوك وجوهره . ولن يثمر مثل هذا التقييم ابدا الا بضع احكامام
سطحية .. شائهة ، تصنع - بحتمية - ذلك السوء التفاهم الدائم بين
ال « هم » ويسميهم كولن ولسن « ذباب الشارع » ، وبين ال « هو »
دينو .. على سبيل المثال .

ولا ينبغي الان ان ننسى هذا لحظة واحدة ، لان على ضوءه ، وما
سبق من ملاحظات ، يمكن فقط ان نجد المفتاح الذي ينكشف لنا كنه
هذه الصلة القريبة التي ربطت دينو الى سيسيلىيا .

ومن الواضح ، ان هذه الصلة بتطوراتها ، واثارها تشكل جوهر
الرواية . وابتدائها يعني - مباشرة - انتقال الصراع الدرامي الى
مجال جديد .. مجال فسيح ، وقمي ، كالمركبة الفاصلة يستقطب كل
قدرات الصراع متكاملة ، ويلقيها في تواجه محدود وناضج يهيب
التجربة ابعادها القصوى ، ويفضي بها الى خاتمتها المحتومة .

ولعل دينو كان يحس ، ولو بابهام مريب ، نهائية التجربة هذه
المرّة . فيصف شعوره وهو يتردد في التعرف على سيسيلىيا بأنه « شعور
الفتيان الخائف الذي يحسه جميع الذين يجدون انفسهم على عتبة
واقع مجهول وغامض ، أو ربما ، بكل بساطة على عتبة الواقع لا اكثر،
الواقع الذي ألفوا منذ وقت طويل الا يفهموه » .

ويحاول الفرار ، لكن الحافز السري يتقلب ، ويوميء بيده الى
سيسيلىيا كي تعود ، ظانا انه يرفمها ليرمي السيجارة فقط .

عرفتموه صحفياً يروي "ماذا جرى في الشرق الأوسط"
وعرفتموه ثائراً يرسم طريق "العقودة" !!
وهو اليوم .. القضاة الذي يحكم فضائح
الحكام في دنيا الشرق الأوسط ..
بأسلوبه الساحر ..

في كتابه الجديد:

« قصص وأصاها »!

للإستاذ: ناصر الدين النشاشيبي
أطلبوه من كافة المكتبات



القرن ٥٠٠ ق.ل

منشورات
الكتب التجارية
بيروت

سيسيليا بدفة مذهلة . فهي الية ، جوفاء ، فارغة من كل استجابة كئاش صحراوي .. كلامبالة مطلقة ، مقطعة الارتباطات ، لا تصادى . لا تمنح . لا تعبر . لا تطلب . لا تشرح . لا تفهم . لا تبالى . حياة سدودة وعافر تظهر نفسها في سلسلة افعال جامدة ، مكشوفة بقدر ما هي مستغلفة وغامضة . ودائما خلو من التظليل الانساني الذي يلون به الانسان لغته وحركاته متملسا « آسنتها » واخراجها من حيز الجمود ، واللااتراث ، والغرابية . وحينما تصفها والدتها بحزن : - اه .. ان سيسيليا لا تحب احدا يا برفسور . تعبر ببساطة دقيقة عن اللامبالاة الكونية التي نجيا في جوفها ، والتي تغطي « شوق التواصل » فطاعته وشدته كما ينرى فيما بعد ..

اما دينو ، وقد صرنا قادرين على تمييز ملامحه ، فان الفسارق في الانقطاع . لا يعرف كيف ينفذ من حصار الاحقيقية وتفاهة الواقع لوعيه . يدوم في اعماقه شبق لاهت للتواصل مع الصلابة ، مع عالم يقيني لا تعتمد فيه الاثياء تحت ضغط التزييف القديم ، الموغل في القدم حتى لكانه يحمل نفس اصلتنا . وهو وسط . دارة من اللاشيئية الجائمة ، كالمضوء الباهر الابيض ، على عينيه ، ينقب بكل قدراته ، وبشكل صامت عن « وهم » يتجلبب بمسوح - الحقيقة - ، او يجسدها في اعماقه اللابغة ، المغمة بالتوتر والتوقع .

حقا ، هو لا يعان لنا انه يبحث . بل يبدو ، في الفصل الاول ، وكأنه يتعاش مستسلما هادئا مع ازمته . مسميا سامه بأنه نوع من التسلية . ولكن - وما اوضح ذلك ! - لا يمكن تفسير ذلك الاحساس العارى بحقيقية سيسيليا على اعتبار انه وليد لحظته كشعور جد طبيعي . وانما يفهم فقط على ضوء كونه مختزنا منذ بعيد ، ناضجا يترقب سائحة وحسب لكي ينفجر بملامحه المرضية .. الشديدة التطلب . انه - بتكرار التمييز - دفع التوق الفائر للتواصل مع عالم حقيقي . توق شبقسي فريسي ، ينتظر المنفذ .. اللحظة المباشرة التي تحمل على جوانحها سواء بسوء تقدير ، او بصدفة ، او بعقلانية غامضة ، لا فرق ، التوهم القنري الذي يحدد المشكلة . يؤطرها ، ويكتفها في ترابط جد بسيط ، ومتزاحم بالصفوف .

فانفلات سيسيليا - خيانتها التافهة - تتوافق - بألية معقدة - مع غياب الحقيقة نفسها في دخيلة دينو ، حتى ان هذه الـ سيسيليا اللامملوكة تنزلق لا شعوريا لتأخذ مكان هذه الحقيقية وسمتها مزعومة مظاهر الهدوء ، او التسليم السابقة . تلك ساعة صفر هائلة . وتبدأ أثرها مسيرة طويلة وشفافة تلمس ، وبالبحاح متزايد عنافا مع « الحقيقة » تحت وهج الشمس وفي النور الدفائ الذي يمحو كل فجوات القلم ، والظلال . وقد يكون من حق دينو ان تتضمن مسيرته بعض الامل ، او قليلا من المتعطفات الغامضة التي تخبىء حتمية النهاية . لكن مورافيا ، وهنا يكمن تفرده في المعالجة ، يرفض ان يتسرب أي انخداع الى سياق

التجربة ، ويحرص على ان تظل كل الاحداث على صفيدها العقسلي ، وداخل اطار من الانكشاف النظري يعمق فسوة النتيجة ، ويؤكد حتميتها بشكل مفرغ .. موحش . ان دينو ، غير مسموح له ، بمتابعة خيالات زائفة لا حقيقية ، لان امرأة مرعبة تحاصره ، فلا يستطيع منها فكاكا . امرأة صادقة جدا ، قريبة ومرعشة كروية رحشبية . ذلك دور باليستاري ، الرسام العجوز ، ذي الشعر الغصبي الذي كان مولما سيسيليا ، والذي مات بسبب شبق لا يصدر - هو الآخر - عن حاجة جسدية ، بل يفوره توهم بانس كالسراب دائما يتمتع ، ودائما لا يمساك .

ودينو ، متابعيا شعوره الفامض ، كان يعرف قصة باليستاري بما تسمح به لهجة سيسيليا من اللعة ، كان يعرف انه ، في غمرة ياس تننفي فيه كل سلطة للعقل ، شرع ينشتر امامه المشلول دون ان يستطيع توقف او تراجع . كان يبدد نفسه في فعل حب موصول ، بهم ، لا يخمد ، ولا يشر صارخا بشبق قائل : « استمري .. استمري .. استمري .. استمري اريد ان تستمري دون ان تنتهي بي . حتى ولو اعترضت ، حتى ولو انزعجت ، وان تمييني ، تمييني حقيقة » .

وفعلا كان ما يبحث عنه ، حينما نزع غشاوة الوهم ، هو الانتحار ياسا ، واعترافا باللاجدوى . وهذه التجربة العاكسة تتضمن معينين .. الاول هو انها حكم عقلي مسبق على مسيرة دينو دائم المشول امامه . والثاني هو انها تجربة اخر .

وقد يلوح منطويا ان يحجم دينو بعد ذلك عن التردى ، والانزلاق على نفس المنحدر ، والى نفس القاع . نعم منطوي ، بيد انه لا واقصي بقدر منطقيته ذاتها . فان الياس المائل لا يكون عاتقا امام مساساشرة هذا الاغتراب الباحث ، ولا يهدى جموحه ، كما ان تجربة الاخر لا تني شيئا البتة . هي توضح مصيرنا . ربما . ولكنها لن تطفى ابسدا تشوقنا وطمنا اللامتناهين للقبض على اللفز الحير . ودورها كله ينحصر في كونها معرفة لا مجدية للياس تزيد المحاولة عنفا وامضاضا .

وهكذا ، فرغم انغراز عيني دينو بمرأة مستقبله ، يندفع بلا تردد ، مهتاجا للقبض على الدخيلة السرية التي بدت له مسن خلال تكتمها وامتناعها معقولة وحقيقية بشكل جهنمي الاثارة .

وعملية القبض هذه كانت تأخذ مسارين متوازيين : الحوار وفعل الحسب .

غير ان استنطاق صمت العالم ، حياده ولا مبالاة وهربه ، بواسطة السبر العقلي كانت دائما من اشق الامور واعمقها . ومن البسبن ، ان الحوار اليارد ، الدقيق الذي كان دينو يلجا اليه ليس الا محاولة تعرية عقلية للدخيلة . ولكن العالم اللاشخصي لا يعرى بسهولة ، وانطباق شفطي سيسيليا المزج ، والثير هو بمثابة رفض الاستجابة البهيم للنفاذ الرياضي الى كثافة العالم الصماء . هذا الرفض الذي يقسوي دافع الانغماس في المسار الاخر ، تعويضا على المستحيل الاول . ولذلك ينحرف دينو بعنى هاتج ، بعد ان يقتل تجرد سيسيليا الحوار ويسده ، الى مضاجعتها مرة ، ومرة دون تفور .. دون امتلاء باليستاري .. مراته المرعبة .

وفعل الحب في رواية « السام » لا يعني اشباعا جسديا لحاجة مثارة ، او تجاوبا متناسقا لنداء طبيعي . بل هو رمز محض . وتكفسي مقارنة بسيطة بين هذا العمل في رواية « عشيق الليدي تشارلي » مثلا وبينه في « السام » لتتقن من هذه الرمزية .

ان تضاجع الليدي مع عشيقها وقتما يبلغان ذروة اللذة كساف بذاته ، لانه الامتلاء الذي يسحق القلق ، ويبدد الضياع راميا مرساة السفينة الى القاع . وانفعلاتهما في هنيهة الذروة تزدهم دائما بلهات نشوة كلية تتدفق في قنوات جسديهما كانشاد كوني غامر ، يتنساها من اعماق العالم .. من جلوره البعيدة . (الجذور البدائية لكل جمال مطلق) . فيرسخ وجودهما ، ويمتته برباط محكم - ازلي - . وعندما كانت الليدي تشارلي عاتدة - فسق احد الايام - من الغابة ، حيث نالت صمتها « كان العالم يبدو لها كالحلم ، واشجار الحديقة تتفتح

فندق نيوبالاس

ادارة : فتحى نوفل

جناح خاص
للعائلات
اسعار معتدلة
مصعدان حديثان



وسط راف
خدمة ممتازة
مياه ساخنة
تليفونات بالغرف

ت : ٤٥٩٣٦
س : ٧٩٧٩١

١٧ شارع سليمان الحلبي
(دوبريس سابقا) القاهرة
تلف : ٥١٧٩١٧٩

New Palace Hotel 17 Sh. Soliman el Halaby
Telephone 45936 - Cairo

أزاء اللاجئ يخبئنا مورافيا ان هنالك مسلكن فقط . ان تتمر ما حولك ، او تتمر نفسك . « ولا يلوح بمسلك ثالث ، لانه توافقا مع هذه العقلانية الدقيقة التجريبية السائدة في الرواية يريد ان يستخلص هذا المسلك الثالث بدلا من ان يقترحه » .

ودينو - كما نعلم - فشل في تصريف توتراته عبر لذات سادية . الى حد ان تعذيب سيسيليا مرة اشعره بالفشيان . ولذا فان الاختيار الاخر محتوم : ان ينتحر « كما يفعل أي عاشق - بمعنى عشق الحقيقة - منذ ان كان العالم عالما » محطما سيارته بشجرة دلب .

عند هذه النقطة ، أحب ان انتقل للحديث ، بايجاز شديد ، عن افكار كامو . اشد كتاب عصرنا اهتماما باللاجئ . ففي دراسته النظرية « اسطورة سيزيف » يشر بموقف ينطوي على نبل بطولي يواجه الوعي فيه اللاجئ دون ان يفكر ، او يختار ذاته ، راميا الى تحقيق تفوق ديالكتيكي الطابع . يستمد من صعوبة المواجهة وقسوتها شهية - حساسة ومرهقة - لذائق العالم من خلال لحظة الحاضرة . ويسمي كامو هذا التفوق بالتمرد . العطاء الجديد للحياة الذي ينجز وسط اليأس ، وبحضور الوعي حضورا كاملا .

ولا مندوحة عن الارتباط حتى يبتثق التمرد . ولذلك فان فرصة النظر به متاحة للمحكوم بالموت لا المنتحر (2) . وحينما يجابه مرسل قدره - الحكم بالاعدام - ، ويختار تمرد رافضا افراء الامل الذي يهدد ، يگسب حريته ، وينال - كتمويض - « حياة الاحاسيس الفنية ، والمذاق الرائع للحظة الحاضرة .. » (3) « النجوم فوق جبهته » ، وبعض ضجيج الحقل الذي يسمو اليه (4) ، ورائحة الليل والارض والملح ترطب عار ض (5) ، وسلام الصيف النائم يتسرب اليه (6) كانه الموجة « (7) » .

والحقيقة ، ان خلاصات التجربة المورافية تتفق كثيرا مع افكار كامو الاساسية هذه . فمع ان دينو قد انتحر ، متجنبا المواجهة الخالقة للتمرد ، الا ان مورافيا يفاجئنا بانعطاف مباغت يرد المصير الى صعيد تمرد يبتح . فدينو لم يمت نتيجة - انتحاره - ، بل نجا . والناجي من الانتحار يماثل المحكوم عليه بالموت . نكل منهما يواجه - من غير امل ، ويتيقن لا انساني - العيب الجرد ، ويختار - كمنفذ - التمرد الذي لا يتابع الطامع غير المعقولة .

- (2) « ونقيض المنتحر هو ، في الواقع ، المحكوم عليه بالموت »
 اسطورة سيزيف .
 (3) كامو والتمرد « روبر دو لوبيه » .
 (4) « الغريب » . وقد استبدلت صيغة ال « انا » بال « هو » .

دراسات ادبية

من منشورات دار الاداب

نزار قباني شاعرا واتساقا	لحي الدين صبحر
لصايا جديدة في ادبنا الحديث	للككتور محمد مندور
في أزمة التلافة المصرية	لرجاء النفاثي

وتتداول كاشرة سفينة راسية . والطريق التي تصعد الى القصر تتأجج بحياة أبدية » .

ولا شك ان هذا الصفاء النفسي الذي انعتق من التوتر ، والذي تبع اشباعا جسديا يتباين - جنريا - مع ذلك الاعتكار الملق ، التنامي الذي كان يختص باطن دينو كلما اوغل في فعل الحب . فهناك تنسند الفجوة ، لانها في اصلها عبارة عن الاعتساف الذي يحتبس صوت الطيعة الاولى ، حيث تلج الحياة في الحياة ، كجمال بسيط ، قسوي وحرار ، او كانبعاث كياني متوهج . اما هنا فان المضاجعة تسرب وتلاش ، ابغار للفجوة الاشد تعقيدا ، وتداخلا ، وتجسيد منها . انتحاري للعبث المطلق . ودينو لا يمتلىء بفعل الحب ، ولكنه يتفرغ ويزداد نهما اذ يعجز - الوشم - عن اشباع شبقه اللامتناهي . وقد بين هذا غامضا ما لم نعلم فعل الحب دوره في الرواية كصلة فيزيكية ذات مغزى ميتافيزيكي ينجلي بالاعتبار الرمزي وحسب . انفوس دينو نحو الدخيلة يريد تسميرها وامتلاكها بالاعتناق يماثل او يساوي المحاولة القديمة ، الضاربة جنورها في افوار تاريخ الفكر ، التي تتلمس توحيد المسالم وتشيته في مفهوم واحد يمتلك عبر عمل افتصابي سريع فينغمز الفهن بالفضياء ، وتنعم النفس بهوئها المقدس ، ودعتها الصوفية .

ولكن بما ان ذلك هو المستحيل الذي هدم كالجولا من قبل ، فان الاتصال الجسدي يفقد عذبا سيزيفيا بلا تنقية ، وبلا مداورة ينساب خلال الرواية في ايقاع مأساوي .. رتيب ومرهق كالاصطدام التكرور بالفراغ ذاته ، او كترديد فجيعة الدراما البشرية النابعة - في رأي كامو - من ذلك الحنين الى الوحدة ، وتلك الشهوة السي المطلق . « والامتلاك الجسدي لم يكن في العادة الا تكرار امتلاك ذهني سابق . لقد حاولت طويلا ان اقسو معها واضمها ، واشدها ، واضمها والسج فيها . ولكنني لم اكن امتلك سيسيليا ، فقد كانت في مكان اخر ، من يدري أين ؟ وانتهى بي الامر الى ان سقطت واهن القوى ، ولكنني ظلت ممثلا بالفضب ، خارجا منها كما اخرج من جرح لا فائدة منه » .

وعشا ، يحاول ان يرفع الصخرة الى القمة الشاهقة !
 يجهد اولاً في كشف خيانتها معتقدا ان هذا الكشف من شأنه ان يضيء سريتها ، ويفضح « البساطة الكدرة للفزية لذلك النوع من البتر البيولوجي الذي هو التكمم » . ولكن ، لا فائدة . فعندما يقن من خيانتها ازدادت غموضا ، وبالتالي اثاره للشبق . ثم يتوسل بالمال محاولا التقاطها - كموس - جد مكشوفة .. جد مبتدلة ويمكن تسمينها . ولكن نائية لا فائدة . ففي حين « انه كان يستطيع هو وبالبيستاري ان يؤكد انها قد اعطاها مالا ، كان بوسعها ، من جهتها ، ان تبرهن على انها لم تكن ماجورة » . فهي لا تهتم بالنقود ، ورغم انها تقبلها ، لا تطلبها ابدا محافظة على لا مبالاتها وصمتها الباحثين على الاضطراب والقلق المصنين . انها لا تمتلك ، ولا تلتفت . وكلما تفرغ ازدادت بعدا ونايا . واخر الامر ، يجرب سهمه النهائي فيعرض عليها الزواج ، غير انها ترفض مفضلة متعة اقرب ، واكثر محسوسة . وهي السفر مع لوسيان الى لوزنا لقضاء خمسة عشر يوما .

ويصطدم دينو بعد سفر شاق ورهيب ، كرحلة عبر ظلام صحراوي ، باللاجئ عارية دون تغطيات وهم او تخيل . سافرت سيسيليا . للم العالم نفسه وتقلص اسود ، كثيفا لا يولج .. لا يخترق « وكل المعرفة المتوفرة في الارض لن تعطيني شيئا يؤكد لي ان هذا المسالم هو ملكي انا » (1) .

وهروب سيسيليا معناه انقاذ من مصير البيستاري . الانتحار التدريجي بحثا عن صلابة ينفيها العقل ، لكن توهمها النفس وسقط حينها وتوقها العظيم . وهذا الانقاذ « والتسمية مجازا » يسقط دينو في شرك اسوأ ، بنية طرح الوجه الاخر للقضية عندما يكون على المرء ان يختار مرة واحدة في مواجهة اللاجئ بدلا من التسرب والتلاشي اللاراديين اللذين يبعان المصير ويعتسران دراماتيكيته .

(1) اسطورة سيزيف لالبيير كامو .

سلسلة اجواز العالمية

صدر منها:

١ - المثقون

رائعة الكاتبة الوجودية الكبيرة

سيمون دو بوفوار

الحائزة على جائزة غونكور الفرنسية

ترجمة جورج طرابيشي

في جزوين - ثمن الجزء ٧ ليرات لبنانية

٢ - السام

اخر رواية للكاتب الايطالي الشهير

البرتو مورافيا

وهي الحائزة على جائزة فياريجيو الكبرى

الثمن خمس ليرات لبنانية او ما يعادلها

٣ - ابك يا بلدي الحبيب

تصوير رائع للماساة العرقية في افريقيا الجنوبية

تأليف الان بيتون

ترجمة خليل الخوري

الثمن ٥.٥؛ فرشاً لبنانيا

منشورات دار الاداب - بيروت

وما اشد الشبه بين مرسل عشية تنفيذ الاعدام في زنزانته ، وبين ديتو المصلوب بالجيس في احدى غرف المستشفى . فالاول يرفض الهرب أو الانتحار ، ثم يقبض تعويضه : التلوق والحياة بعمق اكثر وباحساس اشد . والثاني يقنع باستحالة الاسماك بالعالم ، وتلخيصه في حقيقة سهلة تروي غلة التلوق ، ثم يبدأ في تلوق الوجود بشتى صيغه وانكاله نافذا من الثقب الوحيد الذي يحررنا . ثقب يفتح فقط ، باستبدال عبارة : « اريد ان امتلك » بعبارة : لا تلوق ، او لافهم من غير امان عقيمة .. مخيبة » .

ويتأمل ديتو الشجرة ، ثم سيسيليا ، وينبسط بتامله وشعوره بوجودهما الاخر .. بانهما مختلفتان ، ومستقلتان عن شخصه . وفي هذا المستوى ينتفي السام ايضا ويكتسب العالم وجوده من احساس اغتنى ، وازداد عمقا ورهافة . ومن الطبيعي ان هذا الاحساس يظل اسير الوهم الطارد ، حبس قبضته لا يبرز وينشق الا في لحظة الاعتراف ، او اليقين باللاجئ كعمطى وحيد في عالم انزلاقي املس .

ومعاودة الرسم او استطامته تعهد فقط بانبشاق هذا الاحساس لانه بمثابة « ايجاد » العالم .. أي موضوع الرسم . ويخبرنا دينسو انه سيحاول العودة الى لوحته المتنظرة . ولكنه ، بفعل الخوف الطويل ، والارهاب النفسي الذي مارسه صعوبة المحاولة ، يظل قلقا ، او متشككا من قدرة حالته الجديدة على الصمود . حتى انه يتركتنا دون ان يجزم بان من يغبر التمرد لن ينتكس في تكوص جديد يلاحق فيه شهوات زائفة وقاسية .

ولكن ، رغم ذلك ، يبقى الخلاص المعطى كامنا في اختيار التمرد او الوصول اليه .

وهكذا تفتسي الرواية ، بعد اضاءة الحركة الرمزية فيها ومع الاحتفاظ بميزاتها في المعالجة الى نتائج كامو النظرية ذاتها .

بقيت كلمة موجزة حول الشكل يثيرها ان الرواية الفلسفية معروضة دائما لخطر « الحسابية » ، بمعنى ان تتحول الى معادلة تفسر الناس والحياة على النموذج في رموزها ، واتخاذ معنى حركتها ، دون اي قدر من التلقائية المجانسة لحياتنا .

- اقرب مثل على ذلك هو رواية « طقوس في الظلام » لكوون ولسن . فهي عملية حسابية دقيقة تصادم رموزها : العقل ، والاحساس ، والجسد ، في بوتقة أحداث مصنوعة لتنتج في نهاية التفاعل عربة افلاطون ذات الحصانين المتباينين ، والتي تتسق حركتها بحكمة العقل القائد وحده .

والحسابية - من غير ادنى شك - تضمف الرواية ، وتقدد حيويتها بسلطة العقل المطلقة . مع ان الفلسفة انما دخلت الرواية لكي تكون اكثر تجاوبا مع « الوضع الانساني » واقل انمزالا . لتجيا وتنبض بكلمة أدق .

ورواية « السام » لم تستطع تجنب هذه الحسابية نهائيا . ويمكن لمحها ، وخاصة حينما نقرأ التمهيد والخاتمة لوحدهما ، ونرى كيف ان التمهيد معادلة ينقصها الحل ، وان الخاتمة هي حل المعادلة . ولكن - الى جانب ذلك - يمكننا ان نلاحظ ايضا ، ان موهبة البرتو مورافيا قد احييت السياق بالرغم من ضيق السرح ، وتحدد ابعاده . الشيء الذي يشعرا احيانا باحتفاظ الاحداث ببعض التلقائية ، وبانها غير مدفوعة بحتمية ظاهرة ، ومصنوعة .

وشخصية باليستباري ، وهي امتياز للرواية ، تفقر امكانيات هذه « التلقائية » دون ادنى ريب ، لانها - كما رأينا - مرآة يرتسم فيها الدرب كالتدر ، وبشكل دقيق وواضح كالارقام .

ولعل الذي يعوض لهذا العمل ، او يبرره ، هو ان المشكلة طرحت بكل ابعادها ، وعولجت بمختلف ترجماتها . وربما كان هذا بالذات المسؤول الحقيقي عما اتسمت به من حسابية .

سعدالله ونوس